نظرات في ديوان :

"المشرّد" لأبي سلمى

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

يقولون ان كل شيء يبدأ صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فهي تبدأ كبيره ثم تصغر على مرور الزمن . وهذا يصح على المصيبة بالمال وعلى فقد الاحباب وعلى فواجع الموت.. ولكن ما هو الامر في النكبة بالوطن وبالشرف وبالمثل العليا ؟ ان الفاجعة بموت قريب او حبيب هي فاجعة ناجمة عن الدهشة لحدوث شيء مفاجيء على الرغم من كونه طبيعيا ومحتوما . والدهشة تزول بالالفة ثم بالنسيان. ولكن فقد الوطن ليس امرا طبيعيا ولا محتوما، بل العكس هو الصحيح . ثم ان الوطن ليس لانسان واحد او لجيل واحد فتزول الفاجعة بزوال هذا الانسان او زوال ذلك الجيل . انه ميراث الاجداد للاباء يجب ان يسلمه الاولاد للاحفاد . لذا فان المصيبة بالوطن ، ومثلها المصيبة بالشرف وبالمثل ، لا يمكنها ان تصغر على الايام ، بل انها لتعظم وتتفاقم مع مرور الزمن . وهكذا نكبة العرب بفلسطين ، انها مصيبة امة بوطنها وبشرفها وبمثلها ، وكل يوم يمر دون ان تتضح فيه معالم الطريق لاستعادة هذا الوطن ، وللثأر للشرف ، ولعودة الايمان بالمثل ، هو يوم محرك لفجيعة النكبة ، مؤرث لنارها في القلوب والاعصاب .

ولكن أين نجد الاحساس بعظم النكبة وتزايدها وتفاقم خطرها بمرور الايام ؟ ان الحكام هم ، على اكثر التقديرات براءة ، مشغولون بالتناحر فيما بينهم ، وفي القضاء على المشاكل في بلادهم ، وفي البحث عن مستقبل افضل لشعوبهم . والجماهير العربية ، المنكوبة حقا برقعة من وطنها وبشرفها وبمثلها العليا ، قد اشغلتها المعارك الجانبية ، وألهتها الشعارات المستحدثة بعد النكبة ، عن ادراك ما يجب ان تدركه من النكبة . وأهل فلسطين ، أهل فلسطين بين لاجيء ومشرد ، ألهتهم الرياح الصرصر في الخيام ، والبحث عن اللقمة في المهاجر ، عن ان يرفعوا رؤوسهم ليروا أين اصبحوا من وطنهم الذي قيل لهم في ذات يوم ان ليس بينهم وبينه الا ايام او أسابيع . انهم في انشغالهم بمشاكلهم الحياتية، كانسان في وسط غابة ، ليس يرى منها الا اشجارها القريبة ، بينما تغيب عنه او تهون في اعتباره سعتها وأخطارها . لذا فان احساسهم بالنكبة قد خف توتره الى ان تضاءل . أذن فما دام هذا حال الحكام والجماهير وابناء الجزء المغتصب من الوطن ، فأين نجد الاحساس بعظم المصيبة وتزايدها وتفاقم خطرها بمرور الايام ؟

هل نقول انه لحسن الحظ انه ما زالت في الامة فئة تحمل صليب العذاب ، وتحترق بنار الاحساس ، وتنادي بعظم المهانة ، وتذكر بكل ما ضاع وتهيب بالعودة وتدعو الى الثأر ، ام نقول ان ذاك لسوء الحظ لانه لم يبق من الامة من يشعر بذلك ويفعله الا تلك الفئة وحدها . ان الفئة التي اعنيها بقولي هي فئة الشعراء ، فهم وحدهم الذين بقوا يحملون الاحساس المتزايد بالنكبة ، وبثقلها وبعارها ، والذين بقوا يعبرون عن هذا الاحساس بصرخات متعالية كأنهم الهامة التي تقول أساطير العرب عنها انها تظل تحوم على قبر القتيل تصيح وتعول حتى يثأر اهله له . وطبيعي أن ليس كل الشعراء يحسون هذا الاحساس بالنكبة ويحملون رايتها ، ولكن الذين بقوا يحسون ويترجمون احساسهم الى كلام مؤثر ومثير هم من الشعراء . واقول هذا بعد ان فرغت من قراءة الطبعة الجديدة التي اصدرها الشاعر العربي ، الشاعر الفلسطيني ابو سلمى ، لديوانه « المشرد » . فان قراءة هذا الديوان تضعنا ، بتوتر الاحاسيس والتهاب العاطفة وقوة الشاعرية ، وبعد خمسة عشر عاما من ضياع فلسطين ، امام النكبة وامام عارنا بها وامام مسؤولياتنا فيها ، عزلاء مجردين من بهارج الرياء والنفاق الباطلة . وفي قصائد هذا الديوان المتتالية ، وفي تتابعها بمرور السنين ، نجد مصداق ما قلته آنفا من ان المصيبة بالوطن والشرف والمثل العليا ليست مثل كل المصائب ، لتصغر بمضي الايام . فان احساس شاعر « المشرد » بمصيبة شعبه ومصيبة امته لم يزدد مع الايام الا حدة وتوترا ، ونفسه لم تزدد الا نقمة وثورة . لا مرور السنين ولا اطمئنان العيش . ولا ما ملأ الدنيا وشغل الناس من شعارات مغرية وبطولات مروية ودنى مستحدثة ، ألهت الشاعر عن وطنه الذي فقد . فكلما برز زعيم ، وكلما ارتفع شعار ، بل وكلما هبت نسمة عليلة او خطرت حسناء جميلة ، ضرب على صدره وصاح ، وطني ، أين ذهبتم بوطني ، متى يعود لي وطني ؟..

يبدأ ابو سلمى ديوانه بالقصيدة التي يحمل الديوان اسمها ، قصيدة « المشرد » ، تتالى بعدها قصائد تنطق عناوينها بالنار التي تلتهب في ابياتها : التراب الخضيب، النازحون ، الشعب ، نور ونار ، نسور الديار ، الدماء تصيح ، بقايا اهلي ، أحبة يتساقطون ، النهر الباكي ... وبين هذه القصائد الملتهبة التي تفيض بالحنين او بالنقمة

او بالثورة ، تنتشر قصائد رقيقة تحمل عناوينها ري العاطفة وأرج الهوى : الافق المعطر ، شعاع ، الثوب الازرق ، حلم الشاعر ، الغمازة ، عينان امويتان . ولكن حتى هذه القصائد العطرة والغزلية لا تستطيع ان تبتعد كثيرا عن شغل الشاعر الدائم ، عن وطنه والنكبة بوطنه . ففي قصيدة « الثوب الازرق » تسمعه يبدأ قائلا :

تسألني.. لم استحى الزنبق
كأنها لم تدر من يعشق

مرت فلا الورد خلي ولا
بلبله او غصنه المورق

ويستمر هكذا ليختم القصيده بقوله :

يا من غفا النجم على صدرها
وطل ، وهو حالم ، يحدق

أمن سماء الحب ام موطني،
بالله قولي ، ثوبك الازرق

وفي « الافق المعطر » تراه ينسج الغزل بحبيبته من نفحات المسك والعنبر ، ومن موكب الياسمين ونغم البلبل ، ثم لا يلبث حتى يتسلل موطنه الى الغزل بالحبيبه فتراه يسالها :

جارتي.. ثم أغار من قبل الصبح ومن خفقة الشعاع المحير
هل سرقت الفتون من قسمات القدس او فجرها الحبيب الاشقر
لست ادري، هل جملتك بلادي ام تمثلت انت في كل منظر

وتنتهي نجوى الفؤاد بهذه الصيحة التي تبدو لنا ما أبعدها عن الهوى والغزل :

وطني ، يا ضحية الظلم مالي   لا الاقي غير الجبين المعفر
ايها الظالمون، ماذا جنى الشعب لتجنوا ؟ هل الضمير تحجر؟
ثورة الشعب، طهري كل ارض   واحطمي كل من طغى وتجبر!

وليس مستغربا بعد هذا ان تكون قصيدته « ابنة بلادي » وهي القصيدة المشهورة التي مطلعها :

أين الشذا والحلم المزهر   اهكذا حبك يا اسمر

ليس مستغربا أن ترى الشاعر في قصيدته هذه يغني بلاده في غنائه ابنة بلاده . فهو يقول :

أهواك في أغنية حرة   يخفق فيها الناي والمزهر
في طله الفجر على المنحني   يهفو اليه الكرم والبيدر

وفي .. وفي .. الى ان يقول :

في موكب النصر وفي راية   على درى تاريخنا تخطر
وفي اماني امتي تنتشي   فيها المزوءات وتستكبر
أهواك في شعبي وفي موطني   فانت لا احلى ولا انضر..

ان هذه الظاهرة من القوة والوضوح في قصائد « المشرد » بصوره لا يعدم فيها الشاعر من يظنه طبعة جديدة من شعرائنا التقليديين الاوائل ، الذين كانوا يبتدئون قصائدهم بالنسيب متغزلين لينتهوا فيها الى ذكر خصال ممدوحهم من شجاعة وكرم ، والى ذكر حاجتهم اليه واستمناحهم اياه . في هذا الاعتبار يكون قول ابي سلمى في قصيدته « اطياف » :

أطل الفجر من عينيك   ما أروعها طله
أرى فيها خيال اللد والكرمل والرمله
وموج الشاطىء الغربي في عكا أرى ظله
ارى في افقها وطني   فأطبعه على قبله
لقد حملت لي العينان ما لم استطع حمله

...

على شفتيك يا سمراء   اخبار واسرار
وليف ... ونحن في العالم يا سمراء اشعار
عليها من لظى التشريد والادمع آثار
وقد كانت لنا دنيا   وكان المجد والغار
ونحن اليوم لا وطن،   ولا اهل، ولا دار ..

أقول انه في هذا الاعتبار تكون هذه الابيات « حسن تخلص » ، كقول أبي نواس في جارة بيتيه التي ابوها غيور :

دعيني اكثر حاسديك برحلة   الى بلد فيها الخصيب امير

او قول المتنبي :

نودعهم والبين فينا كأنه   قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق

الا ان قارىء ديوان أبي سلمى لا يحتاج الى كثير فطنه ليدرك ان الشاعر ليس شاعر مناسبات البتة ، وليدرك فوق ذلك ان العاطفه هي المهيج الرئيسي لكل عطائه الشعري ، وان الغنائية هي الطابع الاول والمهيمن على كل ما ينظمه . فالغناء العاطفي هو الموهبة الاولى في شاعرية ابي سلمى . ولولا ان النكبة ، وما سبقها من ثورات وفورات عاصرت سن العطاء عنده ، وما تلاها من فواجع ومحن متلاحقة ، لولا ان كل هذه وتلك ملأت جو الشاعر فخنقت فيه تغريد البلابل وهينمة النسائم وضحكات الحسان لما كان ابو سلمى غير شاعر الوردة العطرة والنظرة الساحرة والشفة الريا . ولكن القدر رسم خطا فلم يستطع الشاعر ان يخرج عنه . واذا جاز لنا ان نجري على لسان ابي سلمى مقالة احد الاوائل لما وجدنا خيرا من قول ذاك ، واحسن انه جرير ، حين عجب بعضهم من حسن نسيبه فقال : اما والله لو تركني هؤلاء الكلاب لشببت لهم تشبيبا تحن به العجوز الى ايام صباها ...

الى هذا الذي قلت آنفا ، الى الغنائية التي هي موهبة ابي سلمى الاصيلة ، ترد اصالة نتاج ابي سلمى الشعري بين ما قيل من شعر وطني والشعر الذي قيل في النكبة بصورة خاصة . فالجمال الفني في قصائد « المشرد » ليس مستمدا من روحها الخطابية ، كما في إكثر شعرنا الوطني ، وان انتزعت ابيات هذه القصائد التصفيق حارا من المستمعين اليها في المهرجانات وحفلات الذكرى . كما ان تلك القصائد ليست روائع ملحمية ، وان حفلت باللفظ الجزل ورواها صاحبها بصوته الجهوري والقائه الفخم . انها في الحقيقة قصائد غنائية ، تتغنى بهوى حبيب اسمه الوطن الضائع ، وتحن الى ذلك الحبيب، وتبكي بعاده ، الذي يؤرث في النفس ذكريات المهانة والعار لان وغدا حقيرا قد اختطفه وحال دون لقائه بالنار والرصاص . وصدق العاطفة في هذا الشعر الغنائي هو الذي يثير في نفس القارىء ، وفي نفوس كل قرائه وسامعيه ، الحنين الجياش ، ثم النقمة المحنقة ، ثم الثورة العارمة ، متجاوبة في ذلك مع الشاعر الصادق في احساسه ، الرائع في غنائه ، المبدع في ادائه . هكذا نجد الحب والأحباب ، والقبل والاشواق ، هي مطالع قصائد الثورة في « المشرد » . أليك مثلا مطالع هذه القصائد :

في « بقايا اهلي » :

قبّل الترب لا تقل انا حالم   هذه غزة العلى والمكارم

وفي « التراب الخضيب » :

من يحيي عنا التراب الخضيبا   ويناجي بعد الفراق الحبيبا

وفي « داري » :

هل تسألين النجم عن داري واين احبابي وسماري

وفي « ارض الجهاد » :

درج المجد على ارض الجهاد فالثم الترب وقل هذي بلادي

من الحب اذن ينطلق الشاعر فيضرم النار في القلوب ، مستمدة من نار قلبه . والحق ان كلماته لتنطق بما يعتمل في نفسه من أسى وحسرة على وطنه الذي لا يراه الا من خلال الدموع ، كأن صورته تتباعد او تذوب :

كلما قلت أطل الفجر غابا اترى تغدو فلسطين سرابا
واذا الدمع روى عنها الهوى وجلا صورتها ذابت وذابا
واذا ما الدمع روى ارضها حالت الارض به قفرا يبابا
وعلى الدرب اذا لاحت مني داميات ترتجي منها الايابا
مسح الاهل رسومات الخطى لم نجد خلف المنى الا ترابا..

ومن أسى وحسرة على اهله المشردين تحت الخيام الممزقة ، يسأل عنهم قومهم الذين اسلموهم الى الذل والتشريد :

ايها العرب اين شعب فلسطين خيام سود وعري وجوع
ودماء مطلولة وجباه عفرتها مذلة وخنوع
اننا لاجئون في كل قطر وبقايا الشعب الشريد قطيع
ليتنا لم نفارق الدار حتى تتلاقى اصولنا والفروع
وترامت اشلاؤنا داميات وحلا للاحبة التقطيع
كل شلو على ثرى عربي أجنبي ينز منه النجيع
والسؤال الحاني على شفتيه يا فلسطين هل اليك رجوع!

ومن نقمة على حكام تاجروا بمأساة قومه وبنكبة بلاده وغرروا بالامة العربية جمعاء في سياق تغريرهم بشعب فلسطين . وحين يضطرم احساس الشاعر ، بعد الحنين والحب ، بالاسى والنقمة ، تجده يصل في النهاية الى ان يتلبس صوت القدر ، منذرا ومتوعدا ، كأنه بذلك يحيي ذكرى الكهان المتنبئين ، او الشعراء العرافين ، حين يستنبطون من سحب الحاضر نذر المستقبل . ففي قصيدة « رجاء » اسمعه يقول :

ونحن من نحن ؟ ألم تعرفوا نحن الضحايا، نحن اهل الفداء
وانتم احبابنا جهرة وانتم اعداؤنا في الخفاء
يا ظالمي اهلي.. ألم تسمعوا ما نحن انعاما ولا نحن شاء
من عالم الغيب يدوي النداء أنا الفلسطيني سيف القضاء

وهل نملك نحن غير ان نقول ان هذا الشاعر ، الناطق بضمير امته ، المغني آلامها وفواجعها ، الذي يبني نبوءاته لا على الدراسات والمقارنات بل على الحدس والشعور ، صادق ؟ لقد كانت محنة فلسطين واهلها سيف القضاء في التاريخ العربي المعاصر . بها دكت عروش وزالت دول ، وستبقى كذلك . ستبقى نكبة فلسطين تجربة ومحكا ومقياسا ليقظة الأمة العربية ، ولادراك الجماهير ، ولصدق الحكام وصواب السياسات. وحين يولد الجيل الصادق ، الجيل المتطهر ، بعد الطوفان المقبل ، فسيذكر ان الشعراء وحدهم ، بعض الشعراء وشاعر « المشرد » في مقدمتهم ، هم الذين بقوا في الساحة يذكرون بالمصيبة الكبرى التي لم تصغر على مرور الزمن ، مثل سائر المصائب ، بل ظلت في وجدانهم وعلى ألسنتهم حية ، ذكية الاوار ، مضطرمة اللهيب .

الرقة **عبد السلام العجيلي**

المشرّد الشريد

.. وعندما يشرَّد المشرد
ويطرق الارجاء باحثا ،
مفتّشا عن دربه للنور من جديد
.. وعندما تمزق الآذان شهقة القيود
ويلتقي على تشريده ، وبعد ان تشرَّدا
النار ، والتعذيب ، والحديد
.. وعندما ، وعندما ..
تعربد الرمضاء في بيوت القار، تحرق الشريان والوريد
تمزق الاعصاب ، تذهل الوجود
وتتلف الحياة في الزنود
تحملق الامال نحو الافق في ذهول
وحولها براعم الوفاء
ينتابها الذبول
يموت في الشفاه ألف خاطر جريح
يفر من قساوة الحياة ، يستريح
فالحرف بات ينطفي ، وقبل ان يلامس الشفاه
مبتلعا شروده ، ولاعقا بالصمت مبتغاه
يغيب في وادي الجماجم المحلولك الرهيب
في ألف خاطر ممزق غريب

***

.. وعندما يشرد المشرد
وتلعق الخواطر السوداء هدبه
تمتص حلمه الجميل ، تطوي في ثنايا الليل قلبه
وتقطع الجذور في الانسان ، تنسي الركب دربه
وتنقضي الساعات في انتظار ان يجيء ذئب الليل
ان تبرز الانياب في الوجود
ان يحضر الزلزال بالقيود
ان ينثني الشراع خاضعا ، مستسلما للسيل
تثور في وجه الدجى المربد صخرة خضراء كالربيع
حسب الشريد ما رأى ،
دعوه يعبر الطريق للرجوع
فلم تزل في دربه بقية ،
بقية خضراء من نجيع .

جامعة القاهرة **عبد الرحمن غنيم**